علاقة الرحمة بمفهومي القوة والعزة

إعداد:
د. مبروك بهي الدين رمضان
كرسي الأمير سلطان بن عبدالعزيز
للدراسات الإسلامية المعاصرة
كلية التربية – قسم الدراسات الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

إن رحمة الإسلام عظيمة وكبيرة وواسعة، وفي الوقت نفسه هي رحمة عاقلة، رحمة قوية واعية، تبصر الموطن المستحق لها، فتنتشر فيها، لا تسمح بهضم حقوق المسلم، فلا يكون قويًّا شديدًا بحيث يُنسي الناس سماحة الإسلام ووسطيته، فيكسر فرعًا طريًّا أو يذل عقلًا بسيطًا، بل رحمة القوة هي التي تجعله يدافع عن حقه، كما تدافع الأم الحنون عن أولادها بشراسة إذا احتاجت إليها، فإذا لم تحتج إلى شراستها وقوتها كانت على أصلها من الرحمة والحنان، وهذا هو المسلم «قوي في رحمته، رحيم في قوته»، فلا يكون ضعيفًا مخذولًا، لأنه علموه أن هذه من آثار الرحمة، ولا كذلك يكون كحجر الصوان، لا ينفعه الماء إذا نزل عليه.

ولقد انفردت صفة الرحمة في القرآن الكريم بالصدارة، وبفارق كبير عن أي صفة أخلاقية أخرى، فجاءت صفة الرحمة بمشتقاتها ثلاث مئة وخمس عشرة مرةً، مما يفسِّر لنا أهميتها في منهج الإسلام.

إن الرحمة سمة هذا الدين في كل جانب من جوانب الحياة، في عقيدته وشريعته، في أخلاقه وعباداته، ومعاملاته وعقوباته، فهي رحمة

امتدت لتشمل الدنيا والآخرة، ولكل زمان ومكان، عندما يستشعر البشر معالم هذه الرحمة، وتترجمها إلى واقع حي في حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية...

كما أن الإسلام دعوة في سبيل الله بالرحمة، وفي الوقت نفسه دفاع عن الشريعة بالقوة، فالله سبحانه وتعالى أرشد نبيه ﷺ إلى أهمية اللين وعدم الغلظة، لاجتماع الناس على الكلمة الحق، وفي الوقت نفسه قوة في الحق.

ولكن الخلل يتكون عند بعض المسلمين من كونه يتبنى مفهومًا واحدًا أعجبه من جهة الإسلام، أو تحت ضغط الإرهاب والتخويف من الإسلام، فيعتقد أن تسليط الضوء على رحمة الدين هي الدعوة الحقة بعيدًا عن قوته وحزمه، وهذا خطأ فادحو يؤدي إلى اختلال المفاهيم، وقلب موازين العدل، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران].

إن مِنَ القوّة ثَباتُ الأخلاقِ، ورُسوخ القِيَم في الفرَح والشِدّة والحزنِ والألم، مع الصَّديق والعدوِّ، والغنيِّ والفَقير، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

قال القرطبي[١] (٦٧١هـ): "دلّت الآية على أنّ كُفر الكافر لا يَمنع من العدل معه،..."[٢].

ومن وصايَا النبي ﷺ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ...»[٣].

ولقَد فَعَل مشركو مَكّةَ برَسولِ الله ﷺ ما فَعَلوا، آذَوه، حَاصَروه، اتَّهموه،

(١) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح، كنيته أبو عبدالله، ولد بقرطبة، وهو يُعَدّ من كبار المفسرين، وكان فقيهًا ومحدثًا، ورعًا وزاهدًا متعبدًا، انتقل إلى مصر في شمال أسيوط حتى توفي ٦٧١هـ.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤٧٨/٦.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيره،، ٣/ ١٣٥٧ برقم ١٧٣١.

كذَّبوه، أخرجوه، ثم شهَروا سيوفَهم ليقتلوه. وتمرّ السّنون، ويَعود رسولُ الله ﷺ إِلى مكّةَ فَاتحًا، فلم ينتقم، ولم يفعل معهم، كما فعلوا معه ﷺ، لأن الرحمة والصفح والعفو عند المقدرة من سلسلة أخلاق الإسلام المتتابعة، وهي من عزة لا من ضعف، وهي رحمة القوة وقوة الرحمة.

وتأتي أهمية طرح دراسة تتناول علاقة القوة بالرحمة والعزة في الإسلام ضرورة ملحّة، لبيان الخلل في فهم مدلولات الرحمة وعلاقتها بالقوة، لا سيّما في ظل الاتهامات الباطلة للإسلام، اتهامات تجمع بين النقائص في التشدد والغلظة والضعف والخور، من خلال (المنهج التحليلي)، ويتضمن (التفسير والنقد والاستنباط) في تأصيل مفهوم الرحمة، وتحليل بعض نصوصها المرتبطة بمفهوم القوة والعزة، لتوضيح مشكلاتها، وانكشاف مبهماتُها، لتبدوَ بصورةٍ واضحة متكاملة، وعلاقتها بالقوة، ومتى تكون الرحمة قوة، والقوة رحمة، وعلاقتها بالضعف، مستندا فيها إلى الأصول والثوابت العلميّة المقرّرة للوصول إلى النتائج، التي يهدف لها البحث.

وإن كان هناك دراسات كثيرة طُرحت لتأصيل أخلاقيات الإسلام، ومن أبرزها (خلق الرحمة)، ومنها التي تضمنها الجهاد النبوي لأعداء الله، إلا أن الكثير منها قد انصب على إثبات أن الإسلام لم ينتشر بالسيف -وهو أمر مهم-، لكننا نرى من المهم إبراز جانب رحمة القوة، وقوة الرحمة، كونه أحد جوانب التوازن الفطري في الإنسان.

وجاء تناول موضوع "علاقة الرحمة بالقوة والعزة" مشاركة من كرسي الأمير سلطان بن عبدالعزيز للدراسات الإسلامية المعاصرة في مؤتمر الرحمة بجامعة الملك سعود، كلية التربية، قسم الدراسات الإسلامية، وذلك من خلال مقدمة مختصرة، ثم التعريف بمصطلحات العنوان، وعلاقتها بالموضوع، ثم مبحثين وخمسة مطالب، المبحث الأول: الرحمة في الإسلام

لا تعني الضعف، وفيه مطلبان: الأول: خطر الخلط بين الرحمة والضعف، والثاني: خطر تنزيل أحكام الضعف على الرحمة، المبحث الثاني: القوة في الإسلام لا تعني الشدة والتشدد والإرهاب. وفيه ثلاثة مطالب: الأول: الرحمة والإحسان قوة وعزة، والثاني: رحمة القوة في تطبيقات الدعوة، والثالث: قوة الرحمة في تطبيقات الجهاد. ثم تعقيب على بعض شبهات المرجفين حول غلظة الإسلام والمسلمين، ثم خاتمة تشتمل على أهم النتائج والتوصيات، ثم فهرس الموضوعات المصادر والمراجع.

سائلا الله سبحانه وتعالى التوفيق والرشاد.

أولًا: التعريف بمصطلحات الموضوع:

١. الرحمة:

أ. تعريف الرَّحْمَة لغةً: «الرّاء والحاء والميم أصل واحد، يدل على: الرقة والعطف والرأفة، رحمه يرحمه، إذا رقَّ له، وتعطَّف عليه، والرُّحْم والمرحمة والرَّحمة بمعنًى[١].

والرحمة: رِقّةُ القلب وعطفه، وقد تطلق الرَّحْمَة، ويراد بها ما تقع به الرَّحْمَة، كإطلاق الرَّحْمَة على الرِّزق والغيث.[٢]

ب. تعريف الرَّحْمَة اصطلاحًا: تأتي الرحمة في استعمالات كثيرة منها: "الرحمة رِقّةٌ تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تُستَعمل تارة في الرِّقة المجرَّدة، وتارة في الإحسان المجرّد عن الرقة،.. والرحمة من اللّه إنعام وإفضال، ومن الآدميين رِقة وتعطف.."[٣]، وهي: "رِقّة في النفس، تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه.."[٤].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (رحم) ٣/٣٩٨.
(٢) لسان العرب، لابن منظور، (رحم)، ٦/ ١٢٥.
(٣) مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني، (الرحمة)، ١/٣٤٧.
(٤) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٦/٢١.

ويعرفها بعضهم بأنها: إرادة إيصال الخير[1]، كما عُرفت بأنها: خُلق مركب من الود والجزع. ولا تكون إلا لمن تظهر منه لراحمه خلَّة مكروهة، فالرحمة هي محبة للمرحوم مع جزع من الحال التي من أجلها رُحم.[2]

قال ابن القيم[3] (٧٥١هـ): "إن الرحمةَ صفةٌ تقتضي إيصالَ المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتْها نفسُه وشقَّت عليها. فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأَرحم الناس من شق عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك، فمن رحمة الأب بولده: أن يُكرِهَهُ على التأدُّب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه ويرفِّهه ويريحه".[4]

قال الكَفَوِيُّ[5] (ت ١٠٩٣هـ): "الرحمة حالة وجدانية، تعرض غالبًا لمن به رقَّة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأ الإحسان".[6]

٢. القوة لغةً واصطلاحًا:

أ. تعريف القوة في اللغة: القوة من (قوى)، القوة نقيض الضعف، والجمع قُوى وقِوى بضم القاف وكسرها، ويكون ذلك في البدن والعقل، كما أن

(١) التعريفات، الجرجاني، ص١١٠.
(٢) موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول ﷺ، ٦/١٦٣.
(٣) ابن قيّم الجوزية (٦٩١هـ: ٧٥١هـ) من علماء المسلمين في القرن الثامن الهجري وصاحب المؤلفات العديدة، عاش في دمشق، ودرس على يد ابن تيمية الدمشقي، ولازمه قرابة ١٦ عامًا وتأثر به. انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، لأحمد بن عبدالوهّاب النويري. ٣٣/ ٢٦٥.
(٤) إغاثة اللهفان، ابن القيم، ٢/١٧٤.
(٥) أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء: كان من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء في (كفه) بتركيا، وبالقدس، وببغداد. وعاد إلى إستانبول، فتوفي بها، ودفن في تربة خالد. وله كتب أخرى بالتركية، انظر: الأعلام، للزركلي، ص ١٨٦-١٩٢.
(٦) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ص ٤٧١.

(القوة) هي الخصلة الواحدة من قوى الحبل، وقيل هي: الطاقة الواحدة من طاقات الحبل، أو الوتر، ويقال: ليس أي قوة أي: أي طاقة.(١)

ب. تعريف القوة في الاصطلاح: لا تنحصر القوة في هذا نطاق ضيق ولا تحبس بين جدران الماديات، وإنما تشمل قوى هائلة، مادية، كما في تعريف ابن عاشور: "كمال صلابة الأعضاء لأداء الأعمال، التي تراد منها"(٢).

ومعنوية لأنها: "مصدر الحركة والعمل، ومنه قوة الروح، وقوة الإرادة، وقوة التفكير"(٣)، فهي: القوى الباعثة والفاعلة والعاقلة والمفكرة والحافظة والعقلية(٤).

٣. العِزَّة لغةً واصطلاحًا:

أ. تعريف العِزَّة لغةً: عَزَّ يعزُّ وعِزًّا، وأصل المادة: (ع، ز، ز)(٥)، عَزَّ يَعَزُّ: إذا اشتَدَّ وقَوِيَ، وبالكسر للمضارع: إذا قَوِيَ وامتَنَع، وبالضَّم: إذا غَلَب وقَهَر. ويقال: عَزَّ فلانٌ، أي: صَار عَزِيزًا، أي: قَوِيَ بعد ذِلَّة. وعَزَّ الشَّخص: قَوِيَ وبَرِئَ من الذُّل(٦).

ب. تعريف العِزَّة اصطلاحًا: تنوعت تعريفات العزّة، وإن كانت تدور حول معانيها المترادفة، قال الراغب (٥٠٢هـ): "حالة مانعة للإنسان من أن يُغْلَب"(٧)، وقال الغزالي (٥٠٥هـ): "من رزقه الله القناعة،

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ص ٣٧٨٧ والقاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص ١٧١٠ ومختار الصحاح، الرازي، ص ٥٥٨ والمصباح المنير، للفيومي، مادة: (قوى)، ٢/ ١٨١.
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١٠/ ٤٤.
(٣) انظر: المعجم الفلسفي لجميل صليبا: ٢: ٢٠٢-٢٠٣. دار الكتاب اللبناني. ١٩٨٢م.
(٤) التعريفات، للجرجاني، ٢٣١-٢٣٢. وانظر التعاريف للمناوي، ٥٩٢-٥٩٣.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: ٤/ ٣٨.
(٦) انظر: تاج العروس، للزبيدي: ١٥/ ٢١٩، الصحاح؛ للجوهري: ٣/ ٨٨، ومقاييس اللغة؛ لابن فارس: ٤/ ٣٨-٣٩. لسان العرب؛ لابن منظور: ٥/ ٣٧٤-٣٧٥.
(٧) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٣٣٣.

حتى استغنى بها عن خلقه، وأمده بالقوة، والتأييد حتى استولى بها على صفات نفسه، فقد أعزه اللّه في الدنيا، وسيعزه في الآخرة بالتقريب إليه"[1]، وقال الكفوي (١٠٩٤هـ) العزة: "الغلبة الآتية على كلية الباطن والظاهر" (وهذا في جناب اللّه تعالى)[2].

وقيل: العِزَّة: القُوَّة والغَلَبَة والحَميَّة والأَنَفَة[3]، وقيل: العِزَّة: التَّأَبِّي عن حمل المَذَلَّة، وقيل: التَّرَفُّع عمَّا تَلْحَقه غَضَاضَة"[4].

والعزة في كلام العرب لا تخرج عن معانٍ ثلاثة: (أحدها: بمعنى الغَلَبَة، والثَّاني: بمعنى الشِّدَّة والقُوَّة، والثَّالث: أن يكون بمعنى نَفَاسَة القَدْر)[5].

٤. الضعف لغةً واصطلاحًا:

أ. تعريف الضعف لغة: الضاد والعين والفاء أصلانِ متباينان، يدلُّ أحدُهما على خلاف القُوَّة، ويدلُّ الآخر على أن يزاد الشَّيءُ مِثلَه. الّتي تدلّ على خلاف القوّة[6]، يقال منه: ضعف فهو ضعيف، والضّعف بفتح الضّاد لغة تميم، وبضمّها لغة قريش، وقيل: الضُّعف (بالضمّ) في الجسد، والضَّعف (بالفتح) في الرّأي والعقل، وقيل: هما معا جائزان في كلّ وجه[7].

ب. تعريف الضعف اصطلاحًا: الضّعف وهن القوّة حسًّا أو معنى، وقيل: خلاف القوّة، ويكون في النّفس، وفي البدن، وفي الحال [8]،

(١) المقصد الأسني، الغزالي، ص ٤٧.
(٢) الكليات، الكفوي، ص ٦٣٩.
(٣) المعْجَم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرين، ٢/٥٩٨.
(٤) مُعْجَم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم؛ للسيوطي، ص: ٢٠٣.
(٥) زاد المسير في علم التَّفسير؛ لابن الجوزي: ١/١١٣ (بتصرُّف).
(٦) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، ٣/ ٣٦٢.
(٧) انظر: لسان العرب، لابن منظور، ٩/ ٢٠٣، ٢٠٤، ط. بيروت، والصحاح، للجوهري: ٤/١٣٩٠، والمصباح المنير، للفيومي، ١/ ١٣٧، مادة (ضعف).
(٨) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، ص ٢٢٣، وانظر: كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، ٢/ ٨٨٧.

وقيل: الضّعف ضدّ القوّة في العقل والرّأي، وبالضّمّ في الجسم، وبالكسر بمعنى المثل[1].

ثانيًا: علاقة الرحمة بالقوة والعزة والضعف:

تأتي علاقة هذه المصطلحات بموضوعنا كونها تمثل محور عناصره، فقوة الحق لا تعني عدم الرحمة، ولقد جمع الله سبحانه وتعالى بينهما، فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح:٢٩]، فلا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتَهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن، واللِّين في دعوتهم، وكِلا الأمرين من مصلحتهم، ونفعُه عائدٌ إليهم.[2]

وتأتي قوة الصدع بالحق بتوجيه مباشر، قال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر]، فعندما يكون الأمر من الله فهو الرحمة الكاملة، لأنه منهج الصلاح للناس جميعًا في الدنيا والآخرة.

إن الصدع بحقيقة هذه العقيدة؛ لا يعني الغلظة المنفرة، والخشونة! كما أن الدعوة بالحسنى لا تعني الضعف، وكتمان جانب من حقائق هذه العقيدة وإبداء جانب، وجعل القرآن عضين.. لا هذه ولا تلك.. إنما هو البيان الكامل لكل حقائق هذه العقيدة، في وضوح جلي، وفي حكمة كذلك في الخطاب، ولطف ومودة ولين وتيسير.[3]

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة:١٢٣]، فإن الغلظة لا تعني أنها طبع، ولكن العدو يجد غلظة إن احتاج الأمر إلى غلظة. فإن لم يحتج الأمر إلى غلظة؛ فلابد أن يوجد في طبعك اللين والموادعة[4]، فإذا كان طريق القوة

(١) انظر: الكليات، للكفوي، ص ٥٧٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص٢١٤-٢١٥.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢١٥٥.
(٤) انظر: تفسير الشعراوي، الشعراوي، ٣/ ١٣٩.

وفق منهج الله يجب أن تكون قويًّا، لأن النبي ﷺ قال: "المؤمن القويُّ خيّر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف".(١)

يقول العقاد (١٣٨٣هـ)(٢): "فكوني رحيمًا هذا لا يعني أنني ضعيف، فالفرق بين الضعف والرحمة هو: أن الضعيف ترك حقه من ضعف ونفسه تريده وتتمناه وتم قهرها، فلا سبيل لها لأخذ حقها، والرحيم هو الذي تمكن من خصمه ثم عفا عنه رحمة به وشفقة على حاله، فالرحمة منبعها القوة، والضعف منبعه الجبن والهوان، وكون المسلم قويًّا لا يستوجب أن يكون باطشًا، بل إن البطش يدل على النقص، بينما القوة هي حفظ النفس من العدو والتصدي له، ورفع الضعيف والدفاع عنه"(٣).

(١) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب الامر بالقوة وترك العجز، ٢٠٥٢/٤رقم ٢٦٦٤.

(٢) عباس محمود العقاد، أديب ومفكر وصحفي وشاعر مصري.، ولد العقاد في أسوان في، ١٣٠٦هـ، وتوفي في ١٣٨٣هـ، اشتهر بكتاباته المتميزة ومن أشهرها العبقريات.. انظر: الموسوعة العربية، عبدالكريم محمد حسين، ص ٣٩.

(٣) عبقرية الصدّيق، العقاد، ص ٣٨.

المبحث الأول
الرحمة في الإسلام لا تعني الضعف

إن الرحمة الشاملة الكاملة هي رحمة الله الغفور الرحيم، فقد عمت الكائنات جميعها، فما من موجود إلا وبرحمه الله يحيا، وفي ظلال هذه الرحمة الإلهية يعيش. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] وقال سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت، وإنها الدعوة للأوبة. دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال. دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله(١)، دعوة لمن انحرف عن التوازن، فشط به هنا أو هناك، وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم.

ونتناول هذا المبحث من خلال مطلبين:

المطلب الأول
خطر الخلط بين مفهومي الرحمة والضعف

إن صفة الرحمة من صفات الكمال، بخلاف الضعف، ولا نسلم بأن الضعف من معاني الرحمة، وإن ظن البعض ذلك لاقترانهما في حق كثير من الناس، مع أنهما متغايران من حيث الأصل، فليست الرحمة حناناً لا

(١) انظر: في ظلال القرآن، قطب، ص ٣٠٥٨.

عقل فيه، أو شفقة تتنكّر للعدل والنظام، وإنما هي عاطفة ترعى الحقوق جميعها، تؤكد الانتصار على النفس، ونفي شبهات القسوة، كما أنها عز وقوة، قال رسول الله ﷺ «.. وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا ..».(١)

إن ادعاء أن الرحمة ضعف وخور، قول مردود نقلًا وعقلًا، وذلك من عدة وجوه:

أولًا: لأن الضعف والخوف مذموم من الآدميين، والرحمة ممدوحة، وقد قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧]، وقد نهى الله عباده عن الوهن والحزن، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران]، وندبهم إلى الرحمة، فقال النبي ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»(٢) وقال ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»(٣)، وقال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن»(٤)، وقال ﷺ: «ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء»(٥) وقال ﷺ كذلك: «إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ».(٦)

ومحال أن يقول قائل: لا ينزع الضعف والخور إلا من شقي! ولكن لما كانت الرحمة تقارن في حق كثير من الناس الضعف والخور كما في رحمة النساء، ونحو ذلك، ظن الغالط أنها كذلك مطلقًا.

ثانيًا: إذا كان الغضب غليان دم القلب بطلب الانتقام: فليس بصحيح

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، ٤/٢٠٠١ رقم/ ٢٥٨٨.
(٢) أخرجه الإمام أحمد، باب مسند أبي هريرة، ١٣/ ٣٧٨- ٨٠٠١، وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٧٤٧٦ وابن تيمية في مجموع الفتاوى: ٦/١١٧.
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٨/١٠- ٦٠١٣، ومسلم: في الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال، ٤/١٨٠٨- ٢٣١٨.
(٤) رواه الإمام أحمد، مسند عبدالله بن عمرو، ١١/٣٣- ٦٤٩٤، وأبو داود، باب في الرحمة، ٤/٢٨٥- ٤٩٤١، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» ٢/٦٣٠.
(٥) رواه الترمذي، باب ما جاء في رحمة المسلمين، ٣/٨٨- ١٩٢٤، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني: في صحيح الجامع رقم/٣٥٢٢.
(٦) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، ٩/١٣٣- ٧٤٤٨.

في حق المسلم الصحيح، بل الغضب قد يكون لدفع المنافي قبل وجوده، فلا يكون هناك انتقام أصلًا.[١]

وإن كانت وصية رسولنا ﷺ «لا تغضب»[٢]، فهي لا تعني أيضًا قبول الفواحش، ولهذا يذم من لا غيرة له على الفواحش، ويذم من لا حمية له، يدفع بها الظلم عن المظلومين، ويمدح الذي له غيرة، يدفع بها الفواحش، وحمية يدفع بها الظلم. وليعلم أن هذا أكمل من ذلك، فلا يغضب المسلم لنفسه، ولكن يغضب لغضب الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ.

وكيف لا يغار ويغضب المسلم والله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ يغاران، قال ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن»[٣]، وقال ﷺ: «أتعجبون من غيرة سعد؟! أنا أغير منه، والله أغير مني»[٤].

ثالثًا: الرحمة ليست ضعفًا، وإنما هي غاية القوة، لأنها استعلاء على الحيوانية والبهيمية والظلمة الشهوانية، وكما أن القسوة جبن، فالرحمة شجاعة، ولا يؤتي الرحمة إلا كل شجاع كريم نبيل، ولا يشتغل بالانتقام والتنكيل إلا أهل الصغار والخسة والوضاعة[٥].

قال السعدي[٦] (١٣٦٧هـ): وعلامة الرَّحْمَة الموجودة في قلب

(١) مجموع فتاوى، ابن تيمية، ٦/ ٢٣٩-٢٤٢ (بتصرف).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، ٨/٢٨- ٦١١٦، ومسلم: في الفضائل، باب فضائل فاطمة، ٤/١٩٠٣- ٢٤٤٩.
(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَاحِشَ﴾ ٦/ ٥٧رقم/ ٤٦٣، ومسلم: باب غيرة الله تعالى، ٤/٢١١٤رقم/ ٢٧٦٠.
(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله، ٨/١٧٣، رقم/ ٦٨٤٦، ومسلم: باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، ٢/١١٣٦رقم ١٤٩٩.
(٥) انظر: مفاهيم مغلوطة، الرحمة ضعف، د. مصطفى محمود، ص ٣٩ (بتصرف).
(٦) انظر: السَّعْدي، عبدالرحمن (١٣٠٧ – ١٣٧٦هـ)، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله. عالم ومفسّر سعودي ولد في القصيم، السعودية. ترك عدة كتب نافعة، أبرزها تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، وكتبه قيِّمة محققة لا تخلو من الدخيل والغرائب. انظر: الموسوعة العربية، ص ١٢٩.

العبد، أن يكون محبًّا لوصول الخير لكافة الخلق عمومًا، وللمؤمنين خصوصًا، كارهًا حصول الشر والضرر عليهم، فبقدر هذه المحبة والكراهة تكون رحمته(١).

إن كل من له دراية بحقيقة القوة والعزة، وحقيقة الرحمة والإحسان: يعلم أنه لا تعارض بين هذه الأحوال. فأين ما يمنع أن يكون القوي العزيز رحيمًا محسنًا؟!. فهذه الحقيقة، لكن الخطأ أتى من جهة الخلط ما بين الرحمة والضعف، كما سبق بيانه، ونبين ذلك من خلال بيان خطورة تنزيل أحكام الضعف على الرحمة.

المطلب الثاني
خطورة تنزيل أحكام الضعف على الرحمة

نعم الضعف يتعارض مع القوة والعزة؛ لأنهما نقيضان، لكن الرحمة لا تتعارض معهما، إذ كنه الرحمة غير كنه الضعف، الرحمة: رقة القلب وحبه وتحركه بالإحسان، ناتج عن رجاء. أما الضعف: فجبن وخور، ناتج عن خوف وجزع. فشتان ما بينهما.

فالرحمة والإحسان عن قوة وعزة، أحسن منها عن ضعف وذلة، والضعيف يرحم، لكنك لا تدري، فلربما كان ضعفه سبب رحمته، وكثير من الضعفاء إذا تقووا انقلبوا جبابرة، لا يعرفون رحمة ولا إحسانًا، فلم تكن رحمتهم إلا وصفًا عارضًا زال بزوال سببه، أما رحمة القوي العزيز فهو وصف لازم، وطبع وجبلة مستقرة، لا تغيرها الأحوال والتقلبات، وهكذا الإسلام يعلّم وينشّئ أفرادًا: أقوياء، أعزاء، ورحماء.

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار، عبدالرحمن السعدي، ص ١٨٩.

ومع ذلك فالضعيف غير ممنوع من الرحمة، بل قد يرحم، لكن رحمته لن تكون كرحمة القوي، فأعظم الرحمة وأحسنها هي التي تكون عن قوة وعزة، فهذا ربنا جل شأنه: أعظم الراحمين، سمى نفسه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، والرحمن هو الممتلئ رحمة، وسمى نفسه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾، وكذلك: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾. وسمى نفسه جل وعلا: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، فهل أسماؤه جل وعلا متعارضة متناقضة؟، كلا، وحاشا، بل هذا الكمال عينه.

كما أن فرقًا بين العفو بالرحمة وبين الذلّ، فالعفو: إسقاط حقِّك جودًا، وكرمًا، وإحسانًا، مع قدرتك على الانتقام؛ فتؤثر الترك رغبة في الإحسان، ومكارم الأخلاق، بخلاف الذُّل، فإنَّ صاحبه يترك الانتقام عجزًا، وخوفًا، ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالًا منه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى].[(١)]

ويتجلى الجمع بين الرحمة والقوة في أسماء الله سبحانه وتعالى، إذ وصف نفسه جل وعلا بالرحمة، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢]، كما وصف نفسه جل وعلا بالقوة، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩]، كما ارتبطت صفة القوة بالعزة.

ولا تناقض مع ذلك؛ لأنه يستعمل الشدة في أمر، ويستعمل الرحمة في آخر، إذن فمن الأولى أن يكون من أوجد الإنسان رحيمًا وجبارًا في الوقت ذاته، فهذه صفات تتكامل ولا تتناقض، وبتعددها تتعدد آثارها في الكون، وفي أنفس الخلق على السواء.

إن المرأة التي يغشى عليها حين ترى جريحًا يتألم، ليست بأرحم على الجريح من الطبيب الذي يفتح جراحه ويزيده ألمًا على ألمه، فالذين يزعمون أن الرحمة ضعف أو مرض، إنما يلتبس عليهم الأمر بين حالة

(١) انظر: الروح، لابن القيم، ص ٢٤١.

المرأة التي هي ضعف، وبين رحمة الطبيب التي هي قوة، لأنها حماية لضعف الآخرين[1].

والرحيم الذي يقسو هنا لينفع بقسوته من لا تنفعهم رحمته، إنما هو أرحم وأقدر على الرحمة، لأن رحمته لا تغلبه ولا تقوده غير واع ولا متدبر، حتى يصنع باسم الرحمة ما هو نقيضها، أو ما هو قسوة معيبة، فيما تنتهي إليه من الإيذاء.

وكفى بالرحمة أنها فتح إنساني في عالم الحياة، ترقى إليها الإنسان وحده بين المخلوقات الحية، وشابهته فيها بمقدار ما صعدت بهم الطبيعة في مرتقاه.

وعندما يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]. إخبار من رب العالمين أن إرساله النبي ﷺ ما كان إلا رحمة للعالمين، فحصر سبب وعلة الإرسال في الرحمة؛ أي ليرحمهم بهذا النبي ﷺ: بما يدعو إليه من الدين، كما جعل الرحمة شاملة بقوله: ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، فلم تختص بالمسلمين وحدهم، بل عمت كل الخلق... فهل جاءت هذه الرحمة عن ضعف، أم جاءت من قوة وعزة.

وهل كان عفو النبي ﷺ عن الذين عادوه، وآذوه، وأخرجوه، وأخذوا ماله، هو وأصحابه، عندما أمكنه الله منهم ضعف أم دليل على أن الأصل هو الرحمة. إذ لو كان الأصل الانتقام لما عدل عنه، مع تمكنه من ذلك؟. إنها قوة الرحمة، وليست رحمة الضعف.

وهل كان إرجاء الحد على الغامدية التي جاءت معترفة بالزنا وترغب في تطهير نفسها، هل كان ضعفًا أم رحمة بالصغير حتى يفطم، ورحمة بالأم حتى تراجع نفسها، فلما أصرت وأقيم عليها كانت توبتها رحمة بها،

(١) انظر: مجلة الرسالة، عباس محمود العقاد، العدد ٤٢٣، الرحمة قوة.

والحد عليها طهارة لها من ذنوبها .. هل كانت عن ضعف أم قوة الحق في الحدود، وقوة الرحمة في نفاذه؟.

يقول الرافعي[(١)] (١٣٥٦هـ): "إن اللين في القوة الرائعة أقوى من القوة نفسها، لأنه يظهر لك موضع الرحمة فيها، والتواضع في الجمال أحسن من الجمال، لأنه ينفي الغرور عنه، وكل شيء من القوة لا مكان فيه لشيء من الرحمة، فهو مما وضع الله على الناس من قوانين الهلاك"[(٢)].

(١) مصطفى صادق الرافعي (١٢٩٨-١٣٥٦ هـ) عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتاب. أصله من طرابلس الشام، عاش ومات في مصر، أصيب بصمم فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به. وله الكثير من المؤلفات الأدبية الشهيرة. انظر: المنتخب من أدب العرب، ١/ ٥٥.

(٢) انظر: رسائل الأحزان، مصطفى صادق الرافعي، ص ١٣.

المبحث الثاني
القوة في الإسلام
لا تعني الشدة والتشدد والإرهاب

يتكون الخلل عند البعض من تبني مفهومًا حديًّا جهة الإسلام، أو تبني فكرته تحت ضغوط (الميديا) لفكرة الإرهاب والتخويف من الإسلام، فيعتقد أن تسليط الضوء على رحمة الدين فقط هي الدعوة الحقة وحسب، بعيدًا عن قوته وحزمه بالنفي المطلق عن القوة والحزم في الإسلام، وهذا يؤدي إلى اختلال المفاهيم، فالقوة: طلب الكمال من غير تكلف، وطلب اليسر من غير تقصير، وليس كل عنف جهادًا، وليس كل تشدد إسلامًا حتى لو تجلبب بجلباب الإسلام.

المطلب الأول
الرحمة والإحسان قوة وعزة

سبق الإشارة إلى مفهوم العزة، ومن المهم هنا الإشارة إلى أن عزة المسلم هي التي ترتبط بالله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فيعتز المرء بدينه ويرتفع بنفسه عن مواضع المهانة، فهو لا يريق ماء وجهه، ولا يبذل عرضه فيما يدنسه، فيبقى موفور الكرامة، مرتاح الضمير، مرفوع الرأس، شامخ

العرين، سالمًا من ألم الهوان، متحررًا من رق الأهواء، ومن ذل الطمع، لا يسير إلا وفق ما يمليه عليه إيمانه، والحق الذي يحمله ويدعو إليه.[1]

ولأن الفهم الخاطئ قد يُؤدي إلى انحرافٍ خُلقي، يَشِيْن طبْعَ الإنسان وفطرته، يقول ابن القيِّم (٧٥١هـ) "وإذا انحرفتَ عن خُلق العزَّة التي وهبها الله للمؤمنين؛ انحرفت إمَّا إلى كبرٍ، وإمَّا إلى ذُلٍّ، والعزَّة المحمودة بينهما"[2].

إنَّ العزَّة أصل منشئها القوَّة والشدَّة، وأمَّا الذلُّ فمنشؤه الضعفُ والعجز[3]؛ لأن الضعيف عاجزٌ والقوي قادر.[4]، فالعزَّة تَختلفُ عن الكِبْر من حيث الحقيقة، فصورة العزَّة تَشْتَرِكُ مع الكبر في معنى القوة والشدَّة، وتَختلف عنه في أمرين:

الأول: من حيث الدافع لهذه القوَّة والشدَّة والرفعة والمنعة؛ فالأولُ: إكرامُ النفس، وطلب مرضات الله سبحانه وتعالى، والثاني: ازدراء الخلق، والتعالي عليهم، وإشباعُ رغبات النفسِ.

الثاني: أنَّ العزَّة مقرونةٌ بالعفو، والرحَمة، والعدل، والإيمان، بخلاف الكبر: فإنه مقرونٌ بالتعالي، والظلم، والغرور.[5]

قال تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:٢٦]، فالله سبحانه وتعالى هو المعز الحقيقي لمن يشاء إعزازه من البشر، بما يقيض له من الأسباب الموجبة للعز، كالقوة وحماية الذمار، ونصرة الحق، وكثرة الأعوان، ونفاذ الكلمة، وغير ذلك من الصفات التي تجعل الحاصل عليها عزيزًا.

(١) انظر: الهمة العالية، لمحمد الحمد ص ١٦٢ (بتصرف).
(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، ٢/ ٣١٠.
(٣) نعني: منشؤها في قلب الإنسان؛ لا منشؤها من حيث الاستمداد أو المعطي لها.
(٤) وقد يَقوى الضعيف، ويَعجزُ القويُّ؛ ولكنَّ الأصل ما ذُكِرَ.
(٥) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ١٠/ ٦٠٠.

قال القرطبي (٦٧١هـ): "فمن كان يريد العزة لينال الفوز الأكبر، ويدخل دار العزة، ولله العزة فليقصد بالعزة الله ﷻ والاعتزاز به فإنه من اعتز بالعبد أذله الله ومن اعتز بالله أعزه الله"[١].

فعن أبي هريرة (٥٧هـ) رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٢].

يقول النبي ﷺ لعقبة بن عامر (٥٨هـ) حين قال: يا رسول الله ﷺ، أخبرني بفواضل الأعمال؟ قال: يا عقبة: «صِل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك»[٣]، وفي رواية: «وأعرض عمن ظلمك»[٤].

وفي فتح مكة (٨هـ): قال ﷺ «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فقالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم. فقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم» وفي رواية: أنه قال لهم: «اذهبوا، فأنتم الطلقاء».[٥]

كان ﷺ يتمثل توجيه رب العزة له: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف].

وعندما اخطأ إخوة يوسف عليه.. فذاق بسببهم صنوفًا من المحن، وأنواعًا من الاضطهاد، عبودية ورق.. وسجن وظلم، وفرقة وشتات.. مع ذلك كله عندما تمكن منهم ما زاد إلا أن قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ [يوسف] .

يقول أنس (٩٣هـ) رضي الله عنه: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه برد نجراني

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٢٣/١٤.
(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، ٢٠٠١/٤ رقم/ ٢٥٨٨.
(٣) رواه الإمام أحمد، من حديث عقبة بن عامر الجهني، ٦٥٤/٢٨ رقم ١٧٤٥٢، وصحح إسناده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم، ٨٥٩/٦.
(٤) رواه الإمام أحمد، من حديث عقبة بن عامر الجهني، ٥٧٠/٢٨ رقم ١٧٤٥٢، وصحح إسناده الألباني في صحيح الترغيب، ٣٣٩/٢.
(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، رزق الله، ص ٥٦٩ .

غليظ الحاشية، فأدركه إعرابي فجبذه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ، وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء.[١]

عزة كونه رسول الله ﷺ، ويعلم الأعرابي أنه رسول الله ﷺ، وأن لديه ما يعطيه، وعفو فلم يؤاخذه بسبب جلافته وغلظه طلبه، وإحسان، فيأمر له بعطاء.

ويقدم لنا رسول الله ﷺ صورة رائعة من صور العزة والإحسان في آن واحد، جسدها الصحابي عبدالله بن عبدالله بن أبي (١١هـ) رضي الله عنهما وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه، فلا يدعه يدخل. تصديقًا لمقاله هو: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨]، ليعلم أن رسول الله ﷺ هو الأعز، وأنه هو الأذل. ويظل يقفه حتى يأتي رسول الله ﷺ فيأذن له. فيدخلها بإذنه، ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز، ومن هو الأذل في الواقعة نفسها وفي الأوان ذاته.

ألا إنها لقمة سامقة تلك التي رفع الإيمان إليها أولئك الرجال، رفعهم إلى هذه القمة، وهم بعد بشر، بهم ضعف البشر، وفيهم عواطف البشر، وخوالج البشر.

وهذا هو من أجمل وأصدق ما في هذه العقيدة، حين يدركها الناس على حقيقتها، وحين يصبحون هم حقيقتها، التي تدب على الأرض في صورة أناسي، تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق.[٢]

وحينما اجتاحت موجة الحزن نفس أبي بكر (١٣هـ) رضي الله عنه لما سمع من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب البرود والحملة والشملة، ٧/١٤٦ رقم/ ٥٨٠٩ ومسلم: باب إعفاء من سأل بفحش، ٢/٧٣٠، رقم/ ١٠٥٧.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، قطب، ٦/ ٣٥٧٨.

حديث الإفك، تلوكه بعض الألسن الآثمة، فتنال من ابنته عائشة أم المؤمنين (٥٨هـ) رضي الله عنها، آلى على نفسه أن يقطع عونه عن أولئك الجاحدين للفضل، ممن خاضوا في هذا الحديث الآثم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور] فعفا وأعاد العطاء رضي الله عنه.

وعلى ضوء هذا التأسيس، يمكننا عرض أهم عناصر المطلب المتعلقة بفكرة عمومية الرحمة وشموليتها[١].

المطلب الثاني
رحمة القوة في تطبيقات الدعوة

ربّى الإسلام أتباعه على حسن الخلق والرفق ولين الجانب وبشاشة الوجه التي تحبب صاحب الدعوة إلى الناس، وتقربهم منه، بخلاف الغلظة والعنف والخشونة في التعامل، فإنها تنفرهم منه، وتبغض الإسلام إلى قلوبهم، فيكون هذا الداعية الفظ الغليظ فتنة لهم لا رحمة.

وتتجلى رحمة القوة في تطبيقات الدعوة في مواطن كثيرة، منها على سبيل المثال:

أ. التوازن الأخلاقي في رحمة القوة:

وهذا التوازن في الإسلام، فهو رحيم دون ضعف، متواضع بغير ذلة، محاربٌ لا يغدر، سياسيٌّ لا يكذب، يستخدم الحيلة في الحرب، ولكن لا ينقض العهود والمواثيق، آمن خصومه بصدقه وأمانته، يجمع بين التوكل والتدبير، وبين العبادة والعمل، وبين الرحمة والحرب، وبين مهام الرسالة والأمور الشخصية.

(١) انظر: عموم الرحمة وعالمية الإسلام، أبو زيد المقرئ الإدريسي، ص١٥/١٧.

ووجه العظمة يتجلى في الإسلام من خلال الموازنة، ضمن منظومة متناسقة متناغمة، تتشابك جميعها لتأدية أغراضها، فلا تتوسع صفة، أو تقوى على حساب أخرى، ولا تعمل إحداها ضد الصفة التي تقابلها.

الرحمة والرفق من أخلاق الإسلام والنبوة وآدابها، يمنح صاحبه الجمال، ويكسو أعماله به، ومن يحرمه حُرم الخير كله. والرفيق من الناس هو كل هين لين قريب سهل، يألف الناس ويألفهم. قال ﷺ: «من يحرم الرفق يحرم الخير».[١]

وعن عائشة (٥٨هـ) رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»[٢]

وقال ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».[٣]

والأحاديث والأخبار الواردة في الرفق لا حصر لها، ولم تقتصر على بني البشر من رجل وامرأة وطفل مسلم أم كافر، بل قد شملت كل الخلائق الحيوان والطير والشجر والجماد.

ولقد عايش العرب والعجم رحمة الإسلام، ورفقه بهم في الدعوة والمعاملة، كما أدركوا أنه رفق في عزة وكرامة، رفق ورحمة في قوة، لا عن ضعف وذلة، إنها رحمة من يقدر على الإقناع، ومن لا يقابل الجهل بالشدة، بل بالحوار واللين وقوة البرهان وصدق الدعوة.

ب. من الرفق حسن الخطاب:

والآيات فيه كثيرة، منها: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]، ﴿وَقُل لِّعِبَادِي

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ٢٠٠٣/٤ رقم/ ٢٥٩٢.
(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ٢٠٠٣/٤ رقم/ ٢٥٩٣.
(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ٢٠٠٣/٤ رقم/ ٢٥٩٤.

يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦]، لأن اللين في الخطاب أدعى إلى إجابة المدعوين أما المخاشنة لهم ربما تنفرهم عن الإجابة، أو أشد من ذلك من وقوع التسابِّ والخصومة والعنف، وهو ما لا يرضاه الله. ولذلك أمر الله رسوليه موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون بالرفق واللين في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه]، فإذا كان هذا رفق الله سبحانه وتعالى بمن يقول أنا الإله، فكيف رفقه جل وعلا بمن يقول لا إله إلا الله؟ إنها رحمة الإسلام، التي لا تفرق بين أحد، لأنها رحمة عامة لكل البشر.

والقرآن الكريم يقرر بوضوح أن الخشونة والغلظة فتنة لا دعوة، فقد خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

فهل يكون العفو إلا عن مقدرة، والاستغفار إلا عن رحمة، والمشاورة إلا عن تودد ومشاركة؟ ولا غرو أن نجد وصف حبيبنا في كتاب ربنا، بأنه أكثر الناس رفقًا، وألطفهم عشرة، يعفو عن المسيء، ويصفح عن المخطئ، حتى وصفه مولاه سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

ج. قوة الرحمة في عالمية الدعوة:

إن بعث النبي رسلًا سفراء من أصحابه، وكتب معهم كتبًا إلى الملوك، يدعوهم فيها إلى الإسلام، قوة أم رحمة؟ أم قوة الرحمة ورحمة القوة؟ إنها رحمة بهم من تركهم في الضلال، وقوة في رحمة عند مخاطبة كل هؤلاء الملوك والأباطرة والقياسرة، تؤكد أن الحق يمتلئ رحمة، متضمنة القوة، إذ أرسله الله للناس كافة ورحمة للعالمين، فبعث إلى كل من: (قيصر ملك الروم؛ وكسرى ملك فارس؛ والنجاشي ملك الحبشة، المقوقس ملك

الإسكندرية؛ وجيفر وعياد ابني الجلندي الأزديين ملكي عمان؛ وثمامة بن أثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة؛ والمنذر بن ساوى العبدي ملك البحرين؛ والحارث بن أبي شمر الغساني، ملك تخوم الشام، وجبلة بن الأيهم الغساني، والحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن...) واختلف جواب الملوك على كتب رسول الله ﷺ، فمنهم من آمن كالنجاشي، ومنهم من رد ردًّا جميلًا كالمقوقس وهرقل، ومنهم من رد ردًّا قبيحًا مثل كسرى الذي مزَّق الكتاب، وبعضهم قتل السفير.[١]

ويقول الإمام محمد أبو زهرة[٢] (ت١٣٩٤هـ) في "العلاقات الدولية في الإسلام" : "الأصل في العلاقات هو السلم... ولا يسمح الإسلام لأتباعه بالتدخل في شؤون الآخرين إلا لضرورة".[٣]

وهذ كلمة من المستشرق الإسباني جان ليك (١٨٣٢ -١٨٩٧م) يقول فيها : "إن المسلمين يمكنهم أن ينشروا حضارتهم بالسرعة نفسها التي نشروها بها سابقًا، إذا رجعوا إلى الأخلاق التي كانوا عليها حينما قاموا بدورهم الأول، لأن هذا العالم الخاوي لا يستطيع أن يقف أمام حضارتهم!!"[٤].

د. قوة الرحمة في تيسير الأحكام الشرعية:

وتتجلى رحمة الإسلام في يسر الأحكام الشرعية العملية، وهي خصيصة من خصائص التشريع الإسلامي، وصفة عامة للشريعة

(١) انظر: زاد المعاد، لابن القيم، فصل في كتبه ورسله إلى الملوك، ج١/ص١١٩.
(٢) محمد أحمد مصطفى أحمد المعروف بأبى زهرة، ولد في مصر، عالم ومفكر وباحث وكاتب مصري من كبار علماء الشريعة الإسلامية والقانون في القرن العشرين، توفي في ١٣٩٤هـ. انظر: نداء الإيمان، تاريخ الولوج، ص ١٠٢.
(٣) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل، ص ٢٩.
(٤) المستشرق الإسباني جان ليك، مستشرق أسباني، ولد ١٨٢٢م، وتوفي ١٨٩٧م، وكان شغوفا بالكتابة واستطلاع التاريخ العربي، ومن كتبه كتاب (العرب)، انظر: كتاب العرب، ص ٤٣.

الإسلامية في أحكامها الأصلية التي تلزم المكلفين. قال الشاطبي(١) (٧٩٠هـ): "إن الشارع لم يقصد إلى التكليف بالشاق والإعنات فيه".(٢)

والنصوص الدالة على ذلك كثيرة، كقوله ﷻ في بيان وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧]، ونصوص أخرى تبين ذلك صراحة كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقال ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا»(٣) وقال ﷺ أيضًا: «إن الله ﷻ لم يبعثني معنتًا، ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا»(٤)، ومن أنواع اليسر ما يسميه الأصوليون والفقهاء: اليسر التخفيفي، وهو ما وضع في الأصل ميسرًا، غير أنه طرأ فيه الثقل بسبب ظروف استثنائية، وأحوال تخص بعض المكلفين، فيخفف الشرع عنهم من ذلك الحكم الأصلي، كأحكام المريض والمسافر وصلاة الخوف والمطر ونحوها (٥)، وتفصيل ذلك يطول، والبحث يضيق عنه.

ومنه عن أنس (٩٣هـ) رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي، مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه».(٦)

وانعقد الإجماع على عدم وقوع الحرج في التكليف، وهو يدل على عدم

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، من علماء الأندلس، كان من أئمة المالكية وشهد له العلماء بمآثره العديدة، انظر: الأعلام للزركلي، ص ١٧٦.
(٢) الموافقات، للشاطبي، ٢/ ١٢١.
(٣) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ١/ ١٦، رقم/ ٣٩.
(٤) رواه مسلم، كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون...، ٢/ ١١٠٤ رقم/ ١٤٧٨.
(٥) الموسوعة الفقهية الكويتية، مادة التيسير واليسر، ٣، ٢١١.
(٦) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي، ١/ ١٤٣، رقم/ ٧٠٩.

قصد الشارع إليه، ولو كان واقعًا لحصل في الشريعة التناقض والاختلاف، وذلك منفي عنها، فإنه إذا كان وضع الشريعة على قصد الإعنات والمشقة، وقد ثبت أنها موضوعة على قصد الرفق والتيسير، كان الجمع بينهما تناقضًا واختلافًا، وهي منزهة عن ذلك.(١)

هـ. قوة رحمة الإسلام في الوسطية أو الاعتدال والتوازن:

إن التوازن سمة الكون كله على اتساعه وضخامته، وهو سمة الإنسان السويّ، الذي لم تنحرف فطرته، وسمة الإنسان الصالح المسلم، وثمرة المنهج الموزون الذي وضعه خالق الكون، وخالق الحياة، وخالق الإنسان. والتوازن معنى واسع، يشمل كل نشاط الإنسان وطاقاته المتنوعة، فهو: "توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل، وطاقة الروح، توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته، توازن بين ضروراته وأشواقه، توازن بين الواقع والخيال، توازن بين الإيمان بالشهادة والإيمان بالغيب، توازن بين الفردية والجماعية، توازن في النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، توازن في كل شيء في الحياة"(٢)

ولذلك يحرص الإسلام على تحقيق التوازن رحمة بالناس، واستدامته في كل صغيرة وكبيرة في حياتهم، وفي كل تشريع من تشريعاته، ويجعله سمة ثابتة وأصيلة في منهجه، وهدف أساسي له يستنفر له كل طاقات الإنسان وقدراته (٣)

و. قوة رحمة الإسلام في التسامح والعفو:

إن من معاني العفو: إسقاط الحق وترك المطالبة، يقال: عفوت عن فلان، إذا تركت مطالبته بما عليه من الحق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ

(١) انظر: الموافقات، الشاطبي، المسألة السادسة، ج ٢/ ص ١٢٢.
(٢) منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، ٢٩-٣٠.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص ٣١.

﴿ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]، أي التاركين مظالمهم عندهم، لا يطالبونهم بها.

والعفو من معالي الأخلاق، وندب إليه الشرع، وحث عليه، والآيات والأحاديث في الترغيب بالعفو كثيرة، منها ما وصف الله به عباد الرحمن، فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف].

وخلاصة ذلك: إنها رحمة حقيقية، فلم تبق رحمة الإسلام مجرد تعاليم نظرية أو مواعظ جوفاء، بل ترجمها إلى الحياة العملية بدقة تدعو إلى التقدير، وتغري بالتدبر في أسرار هذا الدين العظيم، أما الصور والأمثلة في الإسلام فكثيرةٌ جدًّا، وأحكامه تصدِّقُ أقواله، ولا تخالفها.

إن الرحمة التي ظهرت في كل أقوال وأعمال رسول الله ﷺ لم تكن رحمة مُتكلَّفة، تحدث في بعض المواقف من قبيل التجمل أو الاصطناع، إنما كانت رحمة طبيعية تلقائية مُشاهَدة في كل الأحوال، برغم اختلاف الظروف، وتعدُّد المناسبات.. فترى رحمته ﷺ مع الكبار والصغار، مع الرجال والنساء، مع القريب والبعيد، مع الصديق والعدو.. مع البشر والحيوان والحجر، حتى يتعاطف مع جبل أُحُد، الصخر الأصم، ولا يريد للناس أن تتشاءم منه لحدوث مصيبة للمسلمين عنده، ولا يريد لهم أن يكرهوه دون جريرة ولا جريمة، ومع جزع النخلة في مسجده، إنها رحمة عمومية شاملة، تشمل كل من يعيش على ظهر الأرض.

المطلب الثالث
قوة الرحمة في تطبيقات الجهاد "أنموذجا"

إن نصوص الرحمة التي ذخر بها كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ تمثل أصلًا من أصول الإسلام، لا تعارض ولا تناقض نصوص القوة: القتال، والجهاد، وإرهاب العدو، وعلو الإسلام، والبراء من الكافرين، كما إن من مقاصد الشريعة من نظام الأمة أن تكون قوية مرهوبة الجانب مطمئنة البال[1].

ومن مقاصد القوة بعناصرها وأنواعها وضوابطها، أن يتحقق للأمة الرحمةُ بالمؤمنين؛ فترحمهم وتكفلهم وتنصرهم في أي مكان كانوا، ولا تُسّلمهم لعدو ولا معتدٍ، والغلظةُ على المعتدين الظالمين الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق؛ فتردعهم، وتلجمهم، وتلزمهم غرزهم، بما توفر لها من مقومات شاملة للقوة، والله تعالى يقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح:٢٩]، قال ابن كثير (٧٧٤هـ): "هذه صفات المؤمنين الكمَّل؛ أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه"[2].

- إذا حصل على أنفسهم ظلم، فأولى بهم الصبر والإحسان، قال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النحل].

- ويجب عليهم الوفاء، وعليهم الإثم إذا نقضوا، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾ [النحل:٩١].

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية. لمحمد الطاهر ابن عاشور. ص ١٣٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣/ ١٣٦..

- ولا يبتدءون الكافرين بقتال ولا عدوان، بل بدعوتهم إلى الإسلام، فإن رغبوا البقاء على دينهم، فلهم ذلك، لكن لا يمنعون شعوبهم من سماع الإسلام، والدخول فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:١٩١].
- وإذا وقعت الحرب فعلى المسلمين أن يعاملوهم بأصل الرحمة حتى في المعركة، باجتناب قتل الجريح، والضعيف، والشيخ، والمرأة، والطفل، ومن لم يقاتل، واجتناب حرق المزارع، وهدم البيوت، وتخريب الممتلكات، وإذا وقعوا أسرى بأيديهم، فلهم أن يمنوا عليهم بالعفو والإحسان، قال ﷺ: «انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلًا صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين».(١)

ومن هنا يتبلور الفرق الجوهري بين مفهوم الجهاد ومفهوم العنف، فإذا كان الأخير يعني ممارسة الإيذاء والعدوان لأهداف مشروعة أو غير مشروعة. فإن الجهاد شرع من أجل دفع الظلم ورد العدوان ومقاومة المعتدي. لذلك ووفق هذا المنظور، فإن حياة الأمة في جهادها. حيث إن الأمة التي لا تستكين على ظلم، ولا ترضى بالعدوان، فإنها أمة حية وقادرة على ممارسة الشهود الحضاري.

- ومن التوازن بين القوة والأخلاق في إظهار قوة الرحمة في العلاقات الدولية، لتؤكد أنه إذا كانت الحرب ضرورة، فلا يعني الخضوع لغرائز الغضب والتعصب وإشباع نوازع الحقد والقسوة والأنانية. وإن سياسة الإسلام في الحرب كالسلم، لا تجاف الرحمة، ولا تنفصل

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب الدعاء على المشركين، ٣/٣٧ رقم/ ٢٦١٤، وقال ابن حزم في المحلى: «لا يصح» وقال الألباني في ضعيف أبي داود «ضعيف» لكن لبعضه شاهد من حديث بريدة ﷺ، رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار، ٣/ ٢٢٤، وقال «صحيح».

عن الأخلاق، فالحرب لا تعني الفجور في الخصومة، ولا الجور في المعاملة، ولا الوحشية في القتال، ولا الانتقام والتشفي بعد القتال، كما قال ﷻ وهو يعلم المؤمنين، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨﴾ [المائدة]، وإذا كان لابد من الحرب، ردًّا لعدوانٍ أو دفعًا لفتنة، فلتكن حربًا تضبطها الأخلاق، وتحكمها الموازين، ولا تسيرها الشهوات والإحن، لتكن ضد الطغاة والمعتدين وذئاب البشر، لا ضد البرآء والمسالمين والمستضعفين، وهذا واضح في تشريع القتال في القرآن، ووجهته التي ارتضاها له عندما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة]، وبذلك غيَّر الإسلام أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية قديمها وحديثها من النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوَتَر، وكبت الضعيف، وتخريب العمران، وتدمير البنيان، وهتك حرمات النساء، والقسوة بالضعاف والصبيان، وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد في الأرض، وهذا لا ينطبق على العرب، بل كان هذا حال الحروب عند الروم والفرس وجميع شعوب الأرض، بينما الحرب -في الإسلام- تتجه إلى تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية، وغايات محمودة، وتتقيد بأخلاق الرحمة وآداب الإنسانية.

ومظاهر وأدلة الرحمة كثيرة جدًّا، لكن المقصود: أنه إذا كانت الرحمة مطلوبة أولًا، وآخرًا، وما بين ذلك، يعمل بها ابتداء مع غير المسلمين، ويعمل بها حتى في حال الانتقام واسترجاع الحق، فهذا دليل على أنه أصل في الإسلام، ومن أخلاق المسلمين الأصلية، ثم ما يكون بعد ذلك

من جهاد، وقتال، وإرهاب للعدو، وبراء من الكافرين. فكل ذلك له ظرفه، وسببه، الذي لا ينافي الأصل، ولا يلغيه بحال.

إن نصوص الجهاد، وعلو الإسلام، والبراء: نصوص محكمة، قائمة، ماضية إلى يوم القيامة. لا يملك أحد أبدًا نسخها، أو محوها، أو تعطيلها في هذا الزمن، أو تأويلها تأويلاً يبطل معناها. لا يملك أحد نفيها من أحكام الإسلام إلا في حالة واحدة: إذا استطاع محوها من القرآن. وهل يستطيع أحد أن يمحو شيئًا من القرآن.؟!(1).

ولسنا بحاجة لأي شيء من ذلك، فليست عيبًا نحتاج لطيه، ولا خطأ نسعى في تصحيحه، بل حق وعدل، فنصوص الجهاد والقتال والبراء إنما في حق المحاربين من الكفار، المحتلين البلاد، الذين اعتدوا وظلموا بغير حق، وسفكوا الدم الحرام، واستباحوا الأعراض والحرمات، وسلبوا الثروات والمقدرات، وتركوا الناس أذلاء محرومين، فهؤلاء الذين أرهبوا الناس، وروعوا الآمنين، والضعفاء، والصغار، والنساء، لا يظن بعاقل أن ينهى عن دفع أذاهم، وكف شرهم وعدوانهم، وتسمية هذه المقاومة والدفع (من البعض قصد التشويه) إرهابًا.

إن الفطرة، والعقل، والعرف، والشرع، وقوانين البشر.. كلها تجمع على أن للإنسان وللأمة كل الحق أن تدفع عن نفسها، وتسترد حقها بكافة الطرق، التي تضمن لها ذلك، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:8]، ومباشرة جاء التعقيب، وأردف جل وعلا التوجيه المباشر بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ

(1) انظر: إرهاب أم رحمة؟ د. لطف الله بن ملا عبدالعظيم خوجة، صيد الفوائد، ٩/١٤٢٧هـ.

ﭐلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ [البقرة].

فإذا كان القتال في حق المحاربين، دون غيرهم، فليس إذن هو الأصل، بل حالة مؤقتة ليست مستديمة، لأن الأصل لا بد أن يكون مستديمًا، وهكذا هي الرحمة هي الأصل: مع المؤمن، وغير المؤمن.. للإنسان ولسائر المخلوقات.. في السلم، وحتى في الحرب: الرحمة حاضرة. في سائر الأوقات والأحوال، فما اتخذ صفة الاستدامة هو الحقيق بأن يكون أصلا، دون ما اتخذ صفة المؤقت.

هذا هو فقه هذه النصوص، وهذا هو دين الإسلام، ثم إن أخل بعض المسلمين بشيء من هذا، فغلو في بعض أحكام الجهاد أو البراء، فجاهدوا في غير موضع الجهاد، وعاملوا المسالمين كالمحاربين، فهذه أخطاء لا تسلم منها أمة، فكل أمة لها تعاليم وقوانين، وفي كل أمة أفراد يسيئون فهم التعاليم وتطبيق القوانين، فلا يليق ولا يجوز إلصاق أفعالهم بتلك التعاليم، كما لا يجوز القول إن تلك التعاليم تتضمن تلك الأفعال والتطبيقات.

وهكذا ما يقع من بعض المسلمين من مثل تلك الأخطاء، ليس من الإسلام في شيء، كما أن طريقة البعض الآخر من المسلمين في إنكار فرائض: الجهاد، والبراء من المحاربين، وعلو الإسلام. كذلك ليس من الإسلام في شيء[(١)].

والمتتبع لتاريخ الأمم والشعوب، يوقن أنه لم تعرف البشرية رحمة وإحسان في الحروب كالتي قام عليها المسلمون، وفاء بالعهد، وعدم الاعتداء، وعدم المثلة، والإحسان للأسرى، ويؤكد الله عزّ وجل على هذا

(١) انظر: إرهاب أم رحمة؟ د. لطف الله بن ملا عبدالعظيم خوجة، صيد الفوائد، ١٤٢٧/٩هـ.

الخلق العظيم بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل:٩١]، فهو منهج رباني، وخلق أصيل للمسلمين الحق. ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، فلا اعتداء، ولا مثلة، ولا خيانة(١).

ومن المواطن التي تتمثّل فيها المعاني السامية لأخلاق الجهاد في سبيل الله وآدابه كذلك ما يتعلّق بمعاملة أسرى الحرب، فالإسلام دين يمنع قتل الأسرى، بل ويأمر باتباع أكثر أساليب الرحمة والرفق معهم، والقرآن الكريم يمتدح إطعام الأسير، والمسكين، واليتيم، بل ويعُّد ذلك عملًا من الأعمال الصالحة، فيقول في محكم كتابه العزيز: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان]، إنها الشريعة الإسلامية التي أقرت بحق الأسير، قبل أن تصدعنا قوانين البشر بعبارات جوفاء لا تعمل بها.

ومن رحمة الإسلام أن يقدم حق الأبوين على حق الجهاد ولم يكن له أن يجاهد تطوّعا إلا بإذنهما، وذلك لقول رسول الله ﷺ: «ففيهما فجاهد»(٢)؛ كما كانت وصية الخلفاء من بعده، ومنها قول عمر بن الخطّاب (٢٣هـ) رضي الله عنه "اتقوا الله في الذرّية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب"(٣) إنها الرحمة والإحسان اللذان لا تعرفهما جيوش الغزو ومرتزقة اليوم.

وهنا لا بد من التأكيد على أن أي جهاد يخرج عن المعاني السامية لأخلاق وآداب الجهاد في الإسلام فهو جهاد مزعوم، إنّما يندرج تحت مفهوم الحرب، التي نراها اليوم بين الدول للسيطرة على مقدراتها الطبيعية، أو كونها حروبا صليبية مقننة.

(١) الدعوة الإسلاميّة في عهدها المدني، رؤوف شلبي.، ص ٤٢٠.
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الجهاد بإذن الأبوين، ٤/٥٩ برقم/ ٣٠٠٤، ومسلم، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، ٤/١٩٧٥، برقم/ ٢٥٤٩.
(٣) الجهاد في الإسلام، محمّد متولي الشعراوي، ص ١٧١.

إن هذه التربية أخرجت زرعها يانعًا، وأثمرت للبشرية أمة هي خير أمة أخرجت للناس، أمة رحيمة متسامحة مشفقة على البشرية حريصة على هدايتها، أمة شهد لها التاريخ ورموزه من غير المسلمين به في كتبهم وخواطرهم حول الإسلام، ومنها: يقول كاستري[١]: "إن المسلمين امتازوا بالمسالمة وحرّية الأفكار في المعاملات، ومحاسنة المخالفين"[٢].

ويقول الفرنسي جوستاف لوبون[٣]: "إن القوّة لم تكن عاملًا في نشر القرآن، وإن العرب تركوا المغلوبين أحرارًا في أديانهم، فإذا كان بعض النصارى قد أسلموا واتخذوا العربيّة لغة لهم، فذلك لما كان يتّصف به المسلمون الغالبون من ضروب العدل، الذي لم يكن للناس بمثله عهد، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى، وقد عاملوا كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل المسلمين"[٤].

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة[٥]: "إن الحكام المسلمين لم يزجوا بأنفسهم في شؤون تلك الشعوب الداخلية، فبطريرك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب أنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف..

(١) الكونت هنري دي كاستري ((١٨٥٠ - ١٩٢٧) Cte. H. de Castries مقدم في الجيش الفرنسي، قضى في الشمال الإفريقي ردحًا من الزمن. من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب/١٩٠٥)، (الأشراف السعديون) (١٩٢١)، (رحلة هولندي إلى المغرب) (١٩٢٦)، وغيرها.

(٢) الإسلام خواطر وسوانح، الكونت هنري دي كاسترو، ص ٣٥، هنري دي كاستري «الإسلام خواطر وسوانح»، ترجمة أحمد فتحي زغلول، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة رقم ٩٧٨، القاهرة ٢٠٠.

(٣) غوستاف لوبون (١٨٤١-١٩٣١) هو طبيب ومؤرخ فرنسي، أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين امتدحوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية.

(٤) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص ١٢٨، ١٢٩.

(٥) من المستشرقين المنصفين الذين درسوا الحضارة العربية والإسلامية، وفهموا حقيقة الإسلام، وأشادوا به كدين عالمي صالح لكل زمان ومكان، وقد أصدرت عام ١٩٦٠م كتابها الشهير «شمس الإسلام تسطع على الغرب» توفيت في نوفمبر ١٩٩٩م.

لقد أعطى العرب لمن يعتنقون الإسلام من شعوب البلدان التي فتحوها حرية الديانة، وحريتهم كمواطنين..". [1]

هذه بعض شهادات الغربيين المنصفين على عدالة الإسلام، وهي شهادات تؤكّد عظم مبادئ الإسلام وأخلاقه في الجهاد، ويؤكّد على أن الجهاد رسالة كان فيها أخلاق الإسلام وسماحته من أقوى أسلحة المواجهة، وكثيرًا ما كان المسلمون يكسبون المعارك من دون أن يجرّدوا أسلحتهم لهذا السبب. [2]

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكة، ص ٣٦٤.
(٢) الصراع ومتطلّبات الحياة، محمّد هادي كاظم، شركة المصطفى، ص ١٥١.

المبحث الثالث
بعض شبهات المرجفين
حول غلظة وجفاء الإسلام وسلوك المسلمين، وبعض آليات الرد على الشبهات

بداية فإن أعداءَ الإسلام لا يدّخرون جهدًا في إثارة الافتراءات والشبهات حوله، وهم يعملون عملًا منظّمًا، ومن خلال دراساتٍ وخططٍ وتجاربَ وبحوث، حتى صار الافتراءُ على الإسلام علمًا يُدرّس، كما هو الحال في كليات اللاهوت ومراكز التنصير، ويحظى المنصّرون بتدريب مدروس في كيفية طرح الافتراء وإثارة الشبهات. ومن المهم الإشارة إلى النقاط الآتية:

١. أهداف إثارة الشبهات حول الإسلام:

فلا شك أن أعداء الدين ومعهم (الميديا) بشتى أنواعها يعملون لهدفين: الأول التشويش على العامة، والثاني: صرف همم الباحثين وكثير من العلماء والدعاة بالانشغال بالرد على الشبهات وتفنيد حججهم الواهية -باعترافهم- ووضعهم في خانة الدفاع، حتى لا يكون لهم الوقت والجهد في فضح خططهم وتحريفات كتبهم.

لذلك من المهم أن يكون الردُّ على افتراءات أولئك المرجفين عِلمًا يدرُسه المختصون وطلابُ العلم؛ لا سيما المهتمون منهم بمقارنة الأديان، وكذلك

يدرسُه كل المهتمين بمواجهة الحملات المسعورة، التي يشنها الأعداءُ لتشويه الإسلام، بحيث تخرج الردود على قدر كبير من الإجادة والإتقان، وتحقق المقصود منها؛ وهو إجهاض الفرية والقضاء على كل أثر لها.

٢. من الشبهات المثارة المتعلقة بموضوعنا:

ادعاء تناقض الإسلام في صفات الرحمة والشدة.

ومضمون الشبهة هو: ادعاء بعض المشككين أن القرآن الكريم يتناقض بشأن صفات الرحمة والشدة، وبين صفات العنف والتسامح، ومنها ما هو من صفات اللّه سبحانه وتعالى، فكثيرًا ما تجد آيات تصفه بأنه رحمن رحيم، أو غفور ودود، في حين تصفه آيات أخرى بأنه جبار متكبر، وأن بطشه شديد!

وجها إبطال الشبهة:

١. تعدد الصفات الإلهية أدل على كمال اللّه سبحانه وتعالى، وعلى تنوع آثارها في حياة المؤمن.

٢. إذا كان الجمع بين الصفتين المتعارضتين جائز في حق البشر بلا خلاف، فكيف يجوز في حق المخلوقين، ولا يجوز في حق الخالق؟

والرد على هذه الشبهة يطول، ولا يناسبه هذه المساحة المحدودة، لذا نشير فقط إلى أبرز عنصر دحضها:

أولًا: اختلاف صفات اللّه سبحانه وتعالى وتعددها أدل على قدرته وعنايته بالخلق، حيث تنقسم الصفات إلى ثلاثة أقسام: صفة كمال مطلق. صفة كمال مقيد. صفة نقص مطلق.

فصفة الكمال على الإطلاق؛ فهي ثابتة للّه سبحانه وتعالى كالعلم، والقدرة، والحياة، ونحو ذلك. وأما صفة الكمال المقيد، فهذه لا يوصف اللّه بها على الإطلاق إلا مقيدًا، وأما صفة النقص على الإطلاق، فهذه لا

يوصف الله بها بأي حال من الأحوال، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

والذي يقرأ الصفات الإلهية، ثم يخرج فيقول للناس: إن صفات الله عند المسلمين متناقضة، فقد شهد على نفسه بضعف العقل والتمييز.

ثانيًا: أن البينة على المدعى، فعلى من ادعى ذلك أن يأتي هو بدليل لا أن يكلف خصمه بأن يأتي بضده، وأن العنف والإرهاب ليس مذمومًا على الإطلاق، والتسامح ليس محمودًا على الإطلاق، والإسلام يضع كل شيء في مكانه الصحيح، ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى.

ثالثًا: على من يرمون الإسلام بالعنف والإرهاب أن يقرؤوا كتبهم المقدسة (المحرفة) جيدًا، ليدركوا أن التصور الإسلامي ينفرد وحده بهذا التكامل، ليؤكد ما فيه من شموخ وقوة، ومن عقلانية كذلك وصلاحية، لهداية الضمير والوجدان.

رابعًا: أن من غير المسلمين من المفكرين والمنصفين من يشهد للإسلام بالتوازن في كل صفاته وإن كنا لا نحتاج إلى شهادتهم، فمن ذلك: «إن الاسلام الذي نعرفه ونحترمه في أميركا، كما أنزل في القرآن الكريم، هو دين يعلم قيمة وأهمية الرحمة والتسامح والسلام، وأن الجماعة المسلمة الأميركية، وهي تضم اليوم الملايين من المؤمنين، تتميز بتنوعها تمامًا كالجماعات المسلمة العديدة حول العالم»[1]

(١) انظر: فنسنت باتل، السفير الأمريكي في بيروت، (الشرق الأوسط) ١/ ١٠/ ١٤٢٣هـ ٥ العدد ٨٧٧٣.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد..

جاء طرح هذا الموضوع لإبراز قضية مهمة في مفهوم الرحمة، كونها رحمة عامة لا تأتي من ضعف أو ذلة، ولكنها رحمة القوة والعزة، وقوة الرحمة والعزة، وبيان أن الخطاب القرآني للمسلمين بخصوص الرحمة ليس مصدر احتكار أو استعلاء، حيث ترد الرحمة مسندة إليهم في سياق الاشتراط عليهم بتصديق الأنبياء السابقين: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف]؛ وفي ذلك تنبيه منهجي من السقوط في عقدة الشعب المختار أو الاستعلاء العنصري أو الديني على الناس أو احتكار الرحمة بمنطق الطائفة وحرمان الخارج منها.

وقد جاء قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، ليحدد الغاية من خلق سيد الخلق ومن بعثه بالهدى وتكليفه بالرسالة: إنها رحمة للعباد كل العباد، بلا تخصيص ولا استثناء!

إن النص القرآني العظيم يشير إلى أن هذه الرحمة قد كتبها ربنا

على نفسه، قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]، وفي جامع البيان: "قضى ﷻ أنه بعباده رحيم، لا يَعْجَل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وهذا من الله ﷻ استعطاف للمُعرِضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة"(١).

ومن افتتاح كتاب الله تعالى بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة]، واختتامه بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس]، وبينهما تَسْبح الآيات في فضاء من العالمية، لا يقتصر الإله على قوم، ولا يجعلهم شعبه المختار.

فلا عجب أن نجد كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في معرض المخاطبة والتكليف والتوجيه والإنذار والتبشير تتكرر ٢٤١ مرة، كما أن كلمة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تتكرر ٧٣ مرة، غالبيتها الساحقة في معرض براءة الله من أن يكون إلها مخصوصًا لقوم محظوظين، لأنه رب العالمين(٢).

إن الإسلام احترم الاختلاف الثقافي للشعوب، وتركها على ما هي عليه، ولم ينكر عليها إلا ما كان منكرًا في الدين من إفساد أو ظلم، ولم يسع إلى تنميطها ولا فرض عليها نموذجًا للعيش الخاص بالعرب، بالمقابل ضاق الاستعماري ومدّعي الانفتاح بكل اختلاف، واعتبره مظاهر همجية ووحشية، وأكرهوا الشعوب التي احتلوها على تغيير دينها ولغتها وثقافتها وتقاليدها، تحت طائلة الإبادة؛ لنوقن أن دعوى العالمية في حضارتهم مجرد ادعاء، حين تمت تسميتها بالعولمة.

وعلى الأمة المسلمة أن نتخلص من عقدة (الآخر)، ومواجهة تحدياته بعلمية وموضوعية، وبعقل إستراتيجي، يقدّم مصلحة الإسلام، والتخصص

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ١٥٤/٥.
(٢) انظر: أبو زيد المقرئ الإدريسي، عموم الرحمة، ص٤٣ (بتصرف).

العميق في دراسته والاستفادة منه، قصد فهم علمي أعمق وأشمل[1]، ليكون الانطلاق من منطق القوة، وقوة الرحمة، ومن عموم الرحمة وشموليتها، التي تستدعي قيم حفظ الكرامة الإنسانية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، التي ربطت بالآدمية فقط دون أي إحالة على صفة مميزة، مما يقتضي الارتقاء بالخطاب الإسلامي المعاصر إلى أفقه الإنساني والعالمي والكوني، من أجل تفعيل جاد لقيم الكرامة والعدل والحرية والشورى، لتأخذ مكانها المحوري في أسئلة النهضة والتحرر الحارقة ضمن رؤية إصلاحية حضارية شاملة، مركزها قيم الإسلام وحضارته ومناطها الإنسان تحريرًا وتكريمًا وتفعيلًا، من قوة الرحمة ورحمة القوة.

وهكذا تتضح لنا ضرورة توفير القوة للأمة المسلمة، بأنواعها وعناصرها، ومن أبرزها هنا قوة الرحمة، التي تعني العزة والكرامة وعدم الضعف، ويجب أن تضبط الأمةُ هذه القوة بضوابطها الشرعية، التي أشرنا إلى ماهيتها في هذا البحث، حتى تحقق مقاصدها، فتحمي الدين، وتحفظ الأمة، وتحقق لها القيادة والريادة، وتحقق الرحمة بالمؤمنين ونصرتهم، والتصدي للمعتدين وتردعهم.

كما نوصي:

١. أن تكون دراساتنا عن الرحمة لتأكيد تأصيلها للحق من منطق الحق والعدل، لا منطق الدفاع ورد الشبهات.

٢. أن تتبنى دراساتنا العلمية في مواجهة (الآخر) من منطق علمي، لفضح ادعاءاتهم الواهية، وكشف وسائلهم وطرائقهم في النيل من الإسلام، الذي يقوم على: «رمتني بدائها وانسلت».

٣. الدعوة لجميع المؤسسات العلمية والتربوية لترسيخ المفاهيم

(١) انظر: جدل التأصيل والمعاصرة في الفكر الإسلامي، محمد المستيري، منشورات كارم الشريف، ص٢٥.

الصحيحة حول الرحمة والعزة والقوة والكرامة من منطلقات الشريعة الإسلامية بمفاهيمها العلمية وحقائقها الواقعية المترجمة بالسلوك في شتى مناحي الحياة.

٤. أهمية التمسك بقوة في الإيمان، الذي يحرر الضمير والوجدان من كل عبودية لغير الله، ومعها القوة في الاستمساك بالحق، مهما كانت قوة ضغوط الباطل.

٥. أهمية امتلاك القوة في العلم الصانع للشخصية المثلى للإنسان، المبني على أسس التقوى، المثمر بالعمل، وبناء الإعلام النافذ إلى أعماق النفس، لبيان الحق والصدع به.

٦. أهمية القوة في الكشف عن الضعف النفسي في المجتمع، والتطهر منه؛ حتى تأخذ النفس طريقها إلى السمو الروحي، والعزة والكرامة.

والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع:

١. إرهاب أم رحمة؟ د. لطف الله بن ملا عبدالعظيم خوجة، جامعة أم القرى، نشر صيد الفوائد، ٩/١٤٢٧هـ
٢. الإسلام خواطر وسوانح، الكونت هنري دي كاسترو، ص ٣٥، ترجمة أحمد فتحي زغلول، ضمن المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥م.
٣. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (ط. المجمع) ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس، مصطفى بن سعيد إيتيم، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، ١٤٣٢هـ
٤. بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، أبو عبدالله، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر بنحمد آل سعدي (ت ١٣٧٦هـ) المحقق: عبدالكريم بن رسمي آل الدريني، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط١/ ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م
٥. تاج العروس من جواهر القاموس (ط الفكر) السيد مرتضى الزبيدي، دار الفكر، بيروت ط١/١٤١٤ هـ
٦. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ)، دار سحنون، تونس. ١٩٩٧م.
٧. التعريفات، الجرجاني: علي بن محمد، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط/١، ١٤٠٥هـ.
٨. التوقيف على مهمات التعاريف؛ للمناوي، محمد عبدالرؤوف، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط: دار الفكر المعاصر بيروت، ودار الفكر دمشق، أولى ١٤١٠هـ.

٩. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩ م.
١٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق عبدالرحمن ابن معلا اللويحق، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠ م.
١١. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق/هشام سمير البخاري، ط: دار عالم الكتب، الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، الرياض.
١٢. جدل التأصيل والمعاصرة في الفكر الإسلامي، محمد المستيري، منشورات كارم الشريف، تونس، الطبعة الأولى ٢٠١٤.
١٣. الجهاد في الإسلام، محمّد متولي الشعراوي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م،
١٤. الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل، دار البيارق بيروت، توزيع دار ابن حزم بيروت، ط٢/ ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
١٥. حضارة العرب، غوستاف لوبون، (١٨٤١-١٩٣١) دار البيروني نشره في صيغة جديدة تضم النص الأصلي بالفرنسية والترجمة الإنكليزية، ودار العالم العربي، بيروت، ٢٠١٠م
١٦. خواطري حول القرآن الكريم (تفسير الشعراوي)، محمد متولي الشعراوي: أخبار اليوم، ١٩٩١م
١٧. الدعوة الإسلاميّة في عهدها المدني، رؤوف شلبي، منهجها وغاياتها، سلسلة موسوعة الدعوة الإسلاميّة، رقم ٣، الطبعة الأولى، دار القلم، دولة الكويت. ٢٠١٠م
١٨. رسائل الأحزان، مصطفى صادق الرافعي، مطبعة الهلال، مصر، ١٩٢٤م

١٩. زاد المسير في علم التفسير، للإمام جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ)، بيروت. ط: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ.
٢٠. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ/١٩٩٤
٢١. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (السلسلة الصحيحة)، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٢٢. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد. مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الرياض، ط١/ ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
٢٣. شرح معاني الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبدالملك ابن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (ت ٣٢١هـ) عالم الكتب، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م
٢٤. شمس الإسلام تسطع على الغرب، للمستشرقة الألمانية زيغريد هونكة، دار الجيل للطبع والنشر، ٢٠١٠م
٢٥. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.
٢٦. صحيح البخاري محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، دمشق بيروت؛ ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
٢٧. صحيح الترغيب، وضعيف الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف؛ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠ م.

٢٨. صحيح أبي داود، أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت١٤٢٠هـ) مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، ط الأولى، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢ م
٢٩. صحيح الجامع، أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين، المكتب الإسلامي موافق للمطبوع وهو مذيل بالحواشي، الموسوعة الشاملة، (إلكتروني)
٣٠. صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م.
٣١. صحيح مسلم، مسلم بن حجاج؛ تحقيق: نظر بن محمد الفاريابي أبو قتيبة؛ الناشر: دار طيبة؛ ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٦م.
٣٢. الصراع ومتطلّبات الحياة، محمّد هادي كاظم، شركة المصطفى، المنامة، مملكة البحرين، ط١/ ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م،
٣٣. عبقرية الصدّيق، عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية؛ مصر، ١٩٥٠م.
٣٤. عموم الرحمة وعالمية الإسلام، أبو زيد المقرئ الإدريسي، تحرير: سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٩م.
٣٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ.
٣٦. في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت ١٣٨٥هـ)، دار الشروق، بيروت، القاهرة الطبعة: ط١٧/ ١٤١٢هـ
٣٧. كتاب العرب، جان ليك، مستشرق أسباني، (١٨٢٢م- ١٨٩٧م)، مؤسسة الانتشار العربي، ترجمة ش البيطار، ٢٠١٠م
٣٨. القاموس المحيط، لمجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م

٣٩. الكليات، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت١٠٩٤هـ) تحقيق/ عدنان درويش ومحمد المصري، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م،

٤٠. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي (ت ٧١١هـ) دار صادر، بيروت الطبعة: الثالثة، ١٤١٤ هـ.

٤١. مجلة الرسالة/العدد ٤٢٣/ عباس محمود العقاد، الرحمة قوة. (مرقم آليا غير موافق للمطبوع).

٤٢. مجموع فتاوى شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ) تحقيق: عبدالرحمن ابن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م

٤٣. المحلى بالآثار: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، دار الفكر، بيروت، د. ت.

٤٤. مختار الصحاح، للإمام زين الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر ابن عبدالقادر الحنفي الرازي (ت٦٦٦هـ)، تحقيق يوسف الشيخ محمد، ط: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٤٥. مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: ناصر بن سليمان السعوي، علي بن عبدالرحمن القرعاوي، وآخرون، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٤٦. المسند، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيق وترقيم: الشيخ أحمد شاكر، طبعة مؤسسة قرطبة، تحقيق/شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، وآخرون، ط: مؤسسة الرسالة، الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٤٧. المصباح المنير، الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير، صيدا: المكتبة العصرية، ط٢، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م،
٤٨. المعجم الفلسفي لجميل صليبا: دار الكتاب اللبناني. ١٩٨٢م.،. ومجمع اللغة العربية. ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م
٤٩. المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرين، مجمع اللغة العربية، ط: دار الدعوة، مصر. د. ت.
٥٠. مُعْجَم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم؛ للسيوطي، للإمام عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق د محمد إبراهيم عبادة، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
٥١. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط: دار الجيل، بيروت، ط١/ ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٥٢. مفاهيم مغلوطة، الرحمة ضعف، د. مصطفى محمود، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٢م
٥٣. مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص٦١٣، طبعة دار القلم. دمشق، ١٤١٢هـ.
٥٤. مقاصد الشريعة الإسلامية. لمحمد الطاهر ابن عاشور. دار السلام. القاهرة. ٢٠٠٦م.
٥٥. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، طبعات مختلفة، من ١٤٠٤/١٤٢٧ هـ.
٥٦. الموافقات، للإمام إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط: دار ابن عفان، الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٥٧. منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، ط١٤/. ت.
٥٨. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (ت بعد ١١٥٨هـ) تحقيق: د. علي دحروج نقل النص الفارسي إلى العربية، د. عبدالله الخالدي ترجمة: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ط١/ ١٩٩٦م
٥٩. موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، تأليف: عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبدالله بن حميد، ط: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الرابعة-د. ت.
٦٠. نهاية الأرب في فنون الأدب، لأحمد بن عبدالوهّاب النويري. تحقيق فهيم شلتوت. نشر دار الكتب المصرية بالقاهرة ط. الأولى ١٩٩٨.
٦١. الهمة العالية معوقاتها ومقوماتها، محمد بن إبراهيم الحمد، دار القاسم، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.